مقدمة القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي
بين النمطية والتنوع

شاكر لقمان
جامعة أم البواقي (الجزائر)

Abstract:

Introduction to the poetry of Ibn El Abar Alqdai Between stereotypes and Diversity. Intervention provided in Arabic poetry in the context of talking about the Arab parts of the poem in general, which was prepared by Ibn Qutaiba Aldeanori who is considered as the first to point to its grammar, describing the grammar that ought to be through this approach. The researcher will try to give a picture, almost a comprehensive introduction in the poetry of the Andalusian Ibn AlAbar Alqdai (595h 658- h) And its overlap between the typical usual shape of old poets. And between diversity and mitigate some of them, the position of artistic expression is attributed to the poet. or a so required occasion in line with the conditions or environment of the Andalusian era. Stating all kind of length and the palace, and the reference to the predominance of each other.

إن المقصود بالقصيدة المركّبة في النقد العربي، هي تلك التي تشتمل على غرضين والتي تتكون من أقسام ، عبّر عنها النقاد بـ: المطلع ، المقدمة ، الرحلة ، التخلص ، الخاتمة .

يقول حازم القرطاجني : ((**والقصائد منها بسيطة الأغراض ، ومنها مركبة . والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاءً صرفا. والمركبة هي التي يشتمل الكلام على غرضين ، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح ، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق**)).[1]

وبالرجوع إلى ابن قتيبة ، في كتابه " الشعر والشعراء " نجده يشير إلى هذا النوع دون أن يسميها بالتسمية المتفق عليها الآن (القصيدة المركبة) في صدد حديثه عن بناء القصيدة العربية القديمة .[2]

و الناظر في مدونة الشاعر ابن الأبار يستنبط أنه سار في قصائده على منهجين:

1. منهج اتبع فيه مسار القصيدة العربية القديمة، كما رسمها ابن قتيبة ((**وسمعت بعض أهل الأدب...ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ**)).[3] مع التخفف في تناول بعض أقسام هذه القصيدة وقد يطول نفس الشاعر ههنا ، وقد يقصر، كما يرى ذلك الباحث عدنان محمد غزال.[4]
2. ومنهج ، تملّص فيه من هذا العُقال ، أين دعا إلى التخفيف من النسيب ، لا سيما في بعض المواقف التي تستدعي ذلك ، ولا تحتمل التأخير ؛كالتهنئة والرثاء والزهد ، والاستنجاد والوصف ، فيقول: [المديد]:[5]

دَعْ أساليبَ النَّسيبِ وَ خُذْ   في أساطيرِ الأساطيلِ

كما وجدناه يطرح فكرة الوقوف على الأطلال :[الطويل]:[6]

أَشِدْ بالقوافي ذِكْرَ عَلْوَةَ أو عَلْيَا   ودَعْ لِلسَّوَافِي دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَا

ومهما يكن من أمر، فإن القصيدة المركبة، التي يتضمنها ديوان ابن الأبار، قد تكونت كأي قصيدة مركبة أخرى ـ من أقسام، هي: المقدمة، والتي تستهل بالمطلع والرحلة وكانت الرحلة البحرية من أنواعها، والتخلص إلى الغرض الرئيس، الذي كان في أغلبه مدحا، انتهاءً بالخاتمة.

. المقدمة :

كانت المقدمة ـ كمصطلح لدى المحدثين ـ يقابلها عند القدامى من مثل ابن رشيق القيرواني البسطُ ، وعند ابن قتيبة الدينوري البدءُ. ولم يكن ابن الأبار يَشَذُّ عن قاعدة الشعراء القدامى، الذين كانوا يهتمون بمقدمات قصائدهم، على غرار أقسام القصيدة الأخرى إلا أن البيئة الأندلسية، التي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة الجاهلية فرضت على الشاعر الأندلسي أن يُحوّر من عناصر هذه المقدمة التقليدية البدوية انسجاما مع بيئته وتعبيرا عن اندماجه مع عصره.

كما أُهمل وصف الظعن، وكذا التفاصيل الخاصة بالرحلة إلى الممدوح، باستثناء رحلة المحبوبة، التي أخذت حظّا غيرَ قليل من قصائده بشكل عام، ومن مقدماته بشكل خاصّ.

ولم يكن وقوفهم على الأطلال طويلا ـ كما عُرف عند الجاهليين ـ ((**بل وصفوها وصفا عاما بالتبدل والتغير، واكتفوا بتحديد مواقع باصطناع المرور على الأماكن والوديان العربية القديمة، مشاكلة لعروبة الممدوح، كما لم يعرضوا لآثار تبدّل هذه الديار بعد مغادرتها لأنهم عنَوْا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من ذكريات ماضٍ سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم والمتعة بالحزن.**)).[7]

ولم تظفر مقدمات القصائد بالعناية والاهتمام اللازمين، على غرار المطالع التي حظيت بهذه الرعاية الكاملة؛ بعد أن درسوا الشعر فاستحسنوا منه مطالع، وأشادوا بها واستقبحوا أخرى واستهجنوها. ولعل السبب في إغفال المقدمة، هو ما يراه حسين عطوان راجعا إلى اشتغال النحويين والبلاغيين واللغويين على هذا الشعر من زاوية واحدة ـ تقريبا ـ عندما صاروا يفتشون فيه على البيت الواحد لوضعه محل الشاهد في قصائدهم. وهي الظاهرة التي لفتت انتباه الجاحظ، إذ يقول:((**لم أرَ غايةَ النحويين إلا كلّ شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غايةَ رُواةِ الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج**)).[8]

كما يؤكد الدارسون أن مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي لم تكن واحدة، بل غلب عليها نوعان؛ هما المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية. ويرجع حسين بكار الاقتصار عليها ودون غيرها إلى تفسيرين ؛ فالأول نقص استقراء القدماء، والثاني ـ وهو عنده الأرجح ـ كثرة هذه المقدمات الغزلية والطللية، مما جعل اهتمام النقاد ينصب عليهما على الرغم من وجود مقدمات أخرى في هذه القصيدة الجاهلية.

أما حسين عطوان فقد أشار إلى هذا الموضوع محددا أن المقدمات على نوعين؛ مقدمات أساسية، ويذكر لذلك المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية، وأخرى ثانوية كبكاء الشيب ووصف الطبيعة.[9]

وبالرجوع إلى النقاد القدامى، نجدهم يتحدثون عن المقدمتين؛ الطللية والغزلية واللتان تناسبان . حسب ما جاءوا به . قصيدة المدح فقط ، ملزمين الشعراء اللاحقين بالسير على هذا المنهج، ودون الخروج عنه، وإلا وقعوا تحت طائلة الممنوعات. ولهذا الكلام ما يبرره عندما نعود إلى مقولة ابن قتيبة: **((وسمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجْد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعيَ به أصغاءَ الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لِما قد جعل الله في تركيب العباد من محبَّة الغزل وإلف النساء ...فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق ، فرحلّ في شعره وشكا النصب والسهرَ وسُرى الليل وحرَّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير ،فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمامة التأمل،وقرَّر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح ،فبعثه على المكافأة وهزَّهُ للسماح وفضّله على الأشباه وصغّره في قدره الجزيل...)).**[10]

وبالمقابل نجد الناقد ذاته يعيب على الشعراء الذين يهجمون على الأغراض دون مقدمات. ولا يمكن أن يُنكَر أن في الشعر الجاهلي قصائدَ كثيرةً، لم يفتتحها أصحابها. على غير المألوف .بنغماتهم التقليدية، إذ يقول ابن رشيق: **((من الشعراء مَن لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع، والكسع، والاقتضاب، كل ذلك يقال والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء)).**[11]

أما حازم القرطاجني عندما عرض للموضوع، لم يذهب مذهب الأول، بل نظر إليه بنظرة أخرى، دون إلزام ولا اشتراط يذكر، فيقول:**((ويجب أن تكون المبادئ جزلة حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غرض الكلام، وجيزة، تامة...)).**[12]

ليأتي ابن الأثير، تاركا الحرية للشعراء ،متحللا من القيود، التي وُجدت عند الآخرين ولكن في حدود أن لا يؤدي ذاك التحلل إلى ضعف القريحة والقصور عند الشاعر فيقول:

((فإذا كانت مديحا صرفا، لا يختص بحادثة من الحوادث، فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل...وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإنْ فعَل ذلك، دَلَّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه)).[13]

وبتطور القصيدة العربية، ومع مرور الزمن، ظهر تيار يدعو إلى التخفف من هذه المقدمات، مخالفين في ذلك بعض آراء النقاد القدامى كما فعل بشار بن برد، وأبو نواس وغيرهما.

هذا التصرف، أعقبه إقدام شعراء على الثورة على هذه المقدمات كلية؛ مثلما فعل المتنبي مع المقدمة الغزلية، إذ يقول:[الطويل]:[14]

إذا كان مدحٌ فالنَّسيبَ المقدَّمُ   أَكلُّ فصيحٍ قالَ شعراً مُتيَّمُ ؟

أوما فعله أبو نواس في ذات الموضوع، حيث يقول [البسيط]:[15]

لا تبْكِ ليلى ولاَ تطْرِبْ إلى هِنْدِ واشْرَبْ على الورْدِ مِنْ حمَراءَ كالورْدِ

أو كما يقول الشاعر نفسُه، وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه أفضلُ ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين [الكامل]:[16]

صِفةُ الطُّلُولِ بلاغةُ القَدْمِ[17] فاجْعلْ صِفاتِكَ لِابنةِ الكَرْمِ

هذا فيما يتعلق ببعض آراء القدامى في مقدمة القصيدة .

أما فيما يتعلق بآراء المحدثين، فنذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ رأيَ المستشرق فالتر براونة (Walter Braouna) الذي نظر إلى رأي ابن قتيبة السابق، مستغربا مما ذهب إليه، فردَّ عليه مُخَطِّئاً، ومبررا كلامه فيقول: **((الشاعر عضو في المجتمع البدوي مشترك في حياة عرب الجزيرة وبيئتهم، ومن المفهوم أن كل ما يسوقه وصفا للناقة والصحراء، ومن فخر بالقبيلة، وهجاء للعدو، جدير بجذب مجتمعه. فما الذي يلزمه بطلب الإصغاء وما الذي يوجب عليه الأبيات الغريبة؟ أَلِزامٌ عليه أن يميل أهله بمقدمة لوصفه، مع أنه متأكد أن وصف البداوة يعجب أصحاب الحيّ ؟)).**[18]

أما الناقد العربي عز الدين إسماعيل، فيذهب مذهب المستشرق، ويرى ـ هو الآخر ـ رأي ابن قتيبة غيرَ صحيح، أو غيرَ كافٍ ـ على الأقل ـ معللا ذلك بأن فهمه كان متجها نحو المتلقين وأسماعهم فحسب.

فالاختلاف ـ إذا ـ بين النقاد القدامى والمحدثين، كان أساسه أن الفريق الأول يراعي حال المتلقي (الممدوح؛ لأن المعايير وُضعت تحديدا وفق قصيدة المدح) .

وأما الفريق الثاني (المحدثون) فيرى أن القصيدة ترجمان ما في نفسية الشاعر؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت يشع بأدنى اطمئنان إزاء الحياة **((وعلى الرغم من اختلاف القدماء في بعض الجزئيات، فإنهم متفقون على أن المقدمة يجب أن تراعي حال المتلقي أو الممدوح في كل الحالات.ولكن بعض المتأخرين أو المعاصرين يرفضون هذا التفسير بدعوى أن مقدمة القصيدة هي التي تمثل العنصر الذاتي للشاعر...)).**[19]

وأيًّا ما كان الكلام في مقدمات القصيدة العربية، فإن اتجاهاتِها تطورت بحسب الموضوعات، وتعددت على مَرِّ الأزمان، فإلى جانب المقدمتين؛ الطللية والغزلية، اللتين دار حولهما الحديث السابق، نجد في هذه القصيدة العربية مقدمةَ الظعن، الشيب والشباب المقدمة الخمرية، الفروسية، وصف الطيف، ومقدمة وصف الطبيعة. صنفها الدارسون إلى مقدمات أساسية وأخرى ثانوية.

وبالنظر إلى مقدمات ابن الأبار نجدها طويلة ـ وهي الغالبة ـ ومتوسطة الطول في حالتها الوسطى، وقصيرته في القليل النادر. كما تنوعت بين المقدمات الغزلية، التي تربعت على باقي الأنواع بخمسٍ وعشرين مقدمة، استُهِلَّت بها قصائد المدح . ولم يكن هذا الأمر خاصا بِشاعرنا فحسب بل كانت ظاهرة شائعة في أشعار الأندلسيين بصفة عامة.

إلا أن اللافت للانتباه أن هذه المقدمة الغزلية في شعر ابن الأبار، كانت في حالات غير قلية ممزوجة بأدوات الحرب وذكر الدماء والقتلى .

كما نعثر في شعر ابن الأبار على مقدماتٍ أخرى، ولكنها وردت قليلة؛ من مثل مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام، والمقدمة الطللية، والمقدمة الخمرية، والمقدمة البحرية والمقدمة الحماسية .

وفيما يلي عرض لهذه المقدمات المذكورة :

أ . المقدمة الغزلية :

سارت المقدمة الغزلية . وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي . عند ابن الأبار وفق ما رسمه ابن قتيبة ، وألزم به الشعراء ، حين يقول في مناسبة النسب للمدح:

((...ثُمَّ وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وأَلَم الفراق وفرط الصبابة والشوق لِيُمِيلَ نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ولِيستدعي به أصغاءَ الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب لِمَا قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام،...)).[20]

والمقدمة التي بين أيدينا تمثل نموذجا في الطول والتنوع؛ فمن حيث الميزة الأولى فقد تضمنت ثلاثة وأربعين بيتا من مجموع أربعة وسبعين بيتا للقصيدة كلها. أما من جانب التنوع، فقد كانت ثريَّة، متعددة الموضوعات، وهذا الذي ساهم في طولها على حساب غرض المدح الرئيس، الذي لم يكن نصيبه سوى واحدٍ وثلاثين بيتا .

وأما هذه الموضوعات التي أطالت من هذه المقدمة المتميزة فيتصدرها الغزل بامرأة رمت بسهمها فلم تُخطِئْ قلبَ الشاعر، الذي هام من أجلها بوَادٍ ينبت السدر والغضى، سُلُوًّا لِروضٍ ينبت الرند والسَّرْوَ، بيانا لشوق إلى موطنه، وحنينٍ إلى ملاعب الصبا،الذي افتقدها مذْ هاجر مُرغَما من قبل العدو، الذي سلبه بلده ،وسرق منه أيام شبابه ولحظات أنسه، فيقول الشاعر: [الطويل]:[21]

أبقْتُ لِصَحْوِي مِن علاقتِها نشْوى	**رَمَتْنِي بِسهْمِ اللَّحْظِ عَمْداً فَما أشْوَى**
وهِمْتُ بِوادٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ والغضَى	**سُلُوًّا لِروضٍ يُنْبِتُ الرَّنْدَا والسَّرْوَا**
إذَا لاعَبَتْ فيهِ المَاءُ ظِلالَهُ	**تَبَدَّتْ لآلِي الدَّوِّ فيهِنَّ والرَوا**
لَجَاجَةُ مَنْ خَاضَ الصَّبَابَةَ لُجَّةً	**فَخَلَّتْهُ إلاّ مِن تباريحِه خِلْوا**

وقد شبّب بأعرابية، تسكن الصحراء، كما يعود نسبُها إلى" مُضَر" وقبائل عربية أخرى؛ التي تَصِيفُ بها في" نَجْدٍ "، وتَشْتُو بها في "حُزْوَى ". هذه المرأة التي تسبي النفوس بلحاظها، وتقتل العُشّاق بغير سلاح، بما أوتيتْ من جمال فتّان يفوق الشمس في طلعتها والقمر في نوره، فتأسرُ القلوب وتسيطر على الجوارح .

ثم ينتقل إلى ذكر الأطلال التي تذكّره بحب سُرقَ منه بعدما ظعنت المحبوبة، وإلى بعض المواطن العربية المعروفة (الخلصاء) التي أقفرت، والحادي الذي يمثل الرحلة، يزيده شجنا وأحزانا، ويثير في نفسه آلاما وأوجاعا:[الطويل]:[22]

وعُلِّقْتُ أعرابيةً دارُهَا الفَلاَ تَصيفُ على نَجْدٍ وتَشْتُو على حُزْوَى[23]
مُعَوَّدَةً سَبْيَ النفوسِ وقَتْلَهَا وما عَرَضَتْ جيشًا ولا عرَفَتْ غَزْواً
خَلاَ أنَّها مِن أسرةٍ مُضَرِيَّةٍ تَهَابُ الدَّياجِي صُبْحَ غارتِها الشَّعْوَى
إذا طَلَعَتْ مِن خِدْرِها أو تَلَفَّتَتْ فَمَا القَمَرُ الأبْهَى ؟ وما الرَّشَأُ الأحْوَى؟
تُطيعُ (شِغَافا)تُ القلوبِ جُفونَها كأنَّ لَها مُلْكًا على مِلْكِها يَقْوَى
ظلالاً لِحَاديها ظَعائنُ أسْلَمَتْ بِإرْشَادِهِ الخَلْصَاءَ واسْتَقْبَلَتْ قَوَّا[24]
مرَرْتُ بِأطلالِ الأحبَّةِ باكيًا فَدَهْدَهَ مَطْلُولُ الدُّموعِ بها المَرْوا[25]
وقدْ كانَ أخْوَى النَّجْمُ واحْتَبَسَ الحَيَا فَشَكَوْاً لِسَيْلٍ منهُ يُرْعِبُ مَنْ أخْوَى[26]

ومن المعاني ، التي احتوتها هذه المقدمة المطوّلة ذكر مطابقة الصبا مع الشيب، الذي يحن من خلالها إلى الأيام السعيدة التي كان يتمتع بها في بلنسية ، وذكر الحمامة النائحة على للحظات الخوالي ، فيتبادل معه الشدوَ بالشجوِ ، فيزيده ذلك المنظر همّا وكمَدا .

كما لا ينسى وهو في لحظات بث النجوى، والشكوى من ألم فراق الأهل والوطن أن يفيق من صبوته، ويثوب إلى رشده، فيُبين عن إقدامه في الحرب إذا سعرت، وجزعه من الفراق إذا حلَّ وأريدَ، فيجد الهجران أعذبَ، وهو أخطر من الموت، كما يجد السلوان أفظعَ، وهو ألذُّ من العسل. كما ذكر الأقوامَ في الحرب، وحمد الكرم والجود والسماح للأيادي التي امتدت إليه وانتشلته من براثن الفقر والحاجة، وذلك تمهيدٌ للتخلص إلى مدح الأمير أبي زكريا الحفصي و وليِّ عهده أبي يحي في طالع سنة جديدة، ويرجح محقق الديوان أنها كانت سنة640هـ أو641هـ فيقول في هذه الموضوعات كلها: [الطويل]:[27]

قدَرْتُ الصِّبَافيهامع الشيبِ قدْرَهُ ويَا رُبَّ عَمْدٍ في السُّجودِ تَلاَ السَّهْوا
ومِمَّا شَجَانِي ساجِعٌ فوقَ سَرْحِهِ أَطَلَّتْ إلى أَلْحانِهِ في الدُّجَى صَغْوا
يُراجِعُني تحتَ الظَّلامِ مُراجِعًا فَيُسْمِعُنِي شَدْوًا وأُسْمِعُهُ شَجْوا
وإنِّي لَمِقْدَامٌ إذا الحربُ سَعَّرتْ لَظَاهَا ومِجْزَاعٌ مِنَ البَيْنِ إذْ يُنْوَى
فأسْتَعْذِبُ الهِجْرانَ أدْهَى من الرَّدَى وأَسْتَفْظِعُ السُّلْوانَ أَشْهَى مِن السَّلْوَى
حبيبٌ إلى اللَّومِ فيمَنْ أُحبُّه لِيمْتازَ صِدقُ العشقِ فيه مِنَ الدَّعْوَى
و حَتْمٌ عليَّ الحمدُ لِلجُودِ والنَّدى فما زالَ يَغْذُوني الرِّضَى بهما غَذْوا
أيَادٍ كَفَتْ ما أتَّقِي واكِفاتُها فَلاَ أرْتَضِي حَدَّ الثناءِ لها كُفْوا

وكـم بـدْرةٍ بَـادَرتْ بِـالغِنَى يَـدِي	إلـى إمَّـةٍ قَـدْ يَمَّمَتْ كَنَـفِي مَـثْوى
رغائـبُ يُسْـديها السَّـماحُ غوائـبٌ	أَكلَّـتْ جيَّـادَ الشِّـعرِ إذْ رَحُبَـتْ شَـأْوا
وَقَـتْنِي مِـن شَـكْوى الزَّمـانِ وذَمِّـهِ	فمَا لِـي غير العَجْزِ عن شُكرِها شكْوى

ومن المقدمات الغزلية الممزوجة بأدوات الحرب، نقف على مقدمتين؛ فالأولى بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتا من مجموع سبعة وأربعين بيتا ،شكلت القصيدة، التي بُتِرَ منها جزءٌ كان عبد السلام الهراس . محقق الديوان . قد أشار إلى ذلك .[28]

وقد كان للشاعر قصائد في المدح، يستهلها بمقدمات ممزوجة بأدوات الحرب يوظف فيها لغة المعركة وألفاظ القتال من مثل : (السيوف، البيض، أقتل، صرعاها، يصرع الدعس الهبر) .

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يتحدث فيها الشاعر عن عنصر القوة، ولاسيما أمام المرجوّ استغلال قوته ومكانته بين العرب، وإنما تكرر هذا الصنيع؛ لأن ابن الأبار يؤمن بأن القوة هي الحل، والسبيل الذي يرضخ به الأعداء النصارى؛ وحديثه المكرور عن هذا العنصر إنما يؤكد أنه مفقود عند الأندلسيين، ولو كان عندهم ما تشرذموا بين البلاد العربية (تونس، المغرب والجزائر) تحديدا. فالقوة عند الشاعر استحالت معادلة يستعصي حلها لذا نجده في كل مرة يطرح فكرة القوة. وكثيرا ما كان ابن الأبار يقارن أدوات الحرب الفتاكة التي يطعن بها الأسود الكواسر، وبين ألحاظ المرأة التي تقتل بال سلاح، وتسبي القلوب ولا تشفي الجراح ومازج بين دماء القتلى وبين خضاب الأوانس فاللون واحد والنتيجة واحدة إلا أن الأدواتِ مختلفة ، ولكن القتيل واحد أيضا .

ويقول :[الطويل]:[29]*

تُهابُ السُّيوفُ البِيضُ والأُسلُ السُّمْرُ	وأَقْـتُـلُ مـنهـنَّ الغلائلُ والخـمْـرُ
أمـا تلكَ صَرْعَاها تـعِـزُّ نَـجاتُـها	وكمْ قد نَجَا مَنْ يَصْرَعُ الدَّعْسُ والهَبْرُ[30]
بـها فَـتَـنَ الألـبـابَ حُـسْنُ منَـاظِرٍ	لـها طُـرَرٌ سُـحْـمٌ [31]لـها غرَرٌ زُهْـرُ
ولينُ قُدُودٍ يُوجدُ الـنَّـوْر والجَـنـى	لديها ولكـنْ يُعْدَمُ العَطفُ والهَصْرُ
بكَـتْ لبُكـائي المـالكـيَّـةُ فَالْتَقَـى	بِحُكمِ النَّوى اليـاقُوتُ أحمرَ والـدُّرُّ
ومـا زَوَّدَتْـنِـي غيرَ إيمَـاءَةٍ كَـفتْ	وحَـسْبِـيَ عُـرْفٌ لا يقابلُـهُ نُـكْــرُ
....	....
حـياتِـي هَجْرٌ كـلُّـها وقَـطيعــةٌ	أمَا آنَ أنْ تَـفْـنَـى الـقـطـيعةُ والهَجْرُ

وبعد هذا الاستهلال الغزلي، ينتقل الشاعر إلى الفخر بقومه " قضاعة "، الذين يعودون إلى أصل اليمن، والتي تربطهم ببني عدنان رابطة الحلف والصهر، مشيدا بكرم هذا الأصل الرفيع ذي المجد الغالي، وبشجاعة أبطاله وتضحيتهم وبسخاء أيديهم سمو أخلاقهم عزّهم في الجاهلية والإسلام ... إلى أن يخلص إلى يحي المرتضى، الذي لو أنهم أُخِّرُوا ليخدموه لكان ذلك فخرا وذكرا ،يُضاف إلى مفاخرهم :

فَخَرْتُ بِقُرْبِ العِزِّ مِن حَضْرةِ العُلَى	ولولا مكانُ القُرْبِ عَزَّنِي الفَخْـرُ
فَإنْ عُـدَّ بيتِـي فـي قُـضاعـةَ أوّلاً	فَمَنْ عُدَّ مَولاها هو الماجِدُ الحُرُّ
علـى أنّـها جُرثُـومـةُ اليَمَنِ التـي	لها في بني عدنانَ الحِلفُ والصّـهرُ
لقـد كَرُمَـتْ فـي حالتيـها مَغارِساً	فَطالَ وكابَ النَّجْلُ ما شَاءَ والنَّجْـرُ
....	....
ولوْ أنَّ يحيَ المرتضَى أنْسِئوا معاً	لِخدمتِـه لمْ يُنْسَ يـوما لـهم ذِكْرُ

أما القصيدة الثانية فقد وردت فيها مقدمة غزلية أخرى في عشرين بيتا، مستمدة صورها من الاقتتال لنيل الأحبة ذكر فيها أدوات الحرب؛ منها المضارب، الرماح البيض الصفاح، الأسنة، والظبى، وشُبهت الأحبة بالأهلة والكواكب، وإسراع الخيول بالظباء والأسود.

وما أبدع التقسيم والمقابلة في البيت الثالث، الذي جعل فيه الموت بين الأوانس يعادل ويساوي الموت بين الفوارس؛ فالأوليات بألحاظهن يقتلن الرجال عندما يتطلعْن بأعناقهن ويتطاولن بها، والآخرون يسيلون الدماء بالسيوف والرماح، فاستوى لون الدماء والخضاب، يقول الشاعر : [الكامل]:[32]

أهْــــلاً بهِـــنَّ أهِلَّـــةً وكواكِـــبَ	زَحَفَـــتْ هـــلالٌ دونَهُـــنَّ مواكبــاً
تَخـدِي الرَّكائـبُ والسَّـلاهِبُ حولها	تُــرْدِي كأسْــطارِ الكتــاب كتائبــا
فَالمـــوتُ بـــينَ أوَانِـــسٍ وفـــوارسٍ	جَــارُوا علَـــيَّ أعـــاديَّ وحبائبـــا
هُـنَّ الظِّبـــاءُ العـــاطياتُ ســـوالفا	وهـم الأسـودُ الضـارياتُ مَخالِبـا
جـعَلُوا الـدِّماءَ خَلـوفَهم وخِضـابَهم	مُـــسْتأْصِلِينَ مُســـالِماً ومُحاربـــا
....	....

وبعد أن يسترسل الشاعر في تشبيبه بهؤلاء الظباء، اللائي ملكن عنه قلبه، وأسرْن فؤاده فصرْنَ أمنيته الوحيدة ،ليجد في الأخير مبرر الهيام بالنواعم، شأنه في ذلك شأن التعلق بالرماح، والتسويغ للخائض من أجلهن غمار المعركة مُطاعنا ومُضاربا، بعد أن جعلت منه العامرية يلقى الأسنة كيفما شاء، فتارة في ميدان الحب يلهو، وأخرى في ساح المعركة يقاتل دون استراحة :

مَـنْ رَاحَ بِـالبِيضِ النَّـواعمِ هائمًـا	لَـمْ يَغْـدُ لِلسُّـمْرِ الـذَّوابلِ عائبـا
والصَّبُّ مِنْ خَاضَ الأسِنّةَ والظُّبى	نحـو الظِّبـاءِ مُـطاعِنًا ومُضـاربا
....	....
قــد صَـــيَّرَتْنِي العامريَّـــةُ عـــامراً	ألْقَـى الأسـنَّةَ كيـفَ شِئتُ مُلاعبا
أمَّا الهوى فَأخُو الوَغى لمْ استرح	مِـنْ ذا لِـذاكَ (مُراوحـا) ومُناوِبـا

وأما القصيدة الأخرى، التي نظَمها الشاعر على منوال السابقة فقد كان عدد أبياتها سبعةً وسبعين، كان للمقدمة منها ستة وعشرون بيتا؛ أي ما يعادل ثلث القصيدة .

استهلها كعادته بالحديث عن محبوبته، التي صارت تتكر عليه كل شيء، حتى وإن كان ضحية حبها، والافتتان بها. فلم يعد الشاعر يلقى عندها إلا الصدّ والهجران، وما علمت أنها بنأيها المتعمد تزيد في آلامه، وتنغص عليه حياته، التي لا يتصورها بعيدة عنه يقول الشاعر: [الطويل]:[33]

أَتَجْحَدُ قَتْلِي رَبَّةُ الشَّنْفِ والخِرْصِ ... وذاكَ نَجيعِي في مُخَضَّبِها الرَّخْصِ
تَوَرَّسَ ما تَعْطُو بِهِ مَن عَبيطِهِ ... كمَا طَلَعَ السَّوسَانُ في صِبغَةِ الحُصِّ
وتَسْفِكُهُ وهو المُحَرَّمُ سَفْكُهُ ... حلالاً كأَنَّ الظُّلْمَ ليسَ له مُحْصِ
أمَا عَلِمَتْ أنَّ القِصَاصَ أمامَها ... فكيفَ أراقَتْهُ على النَّحْرِ والقَصِّ[34]

....

ثم ينتقل إلى الإفصاح عن هذه المرأة، التي سلبت قلبه، وأسالت دمه، دون أن تعير أدنى اهتمام لما تفعل، وهي عربية أصيلة. ولقد تكرر عند الشاعر الاعتداد بالعربيات. ولعل ذلك يوحي بأنه يفضلهن عن غيرهن، إقرارا لعروبته، التي ستحضر حتما في مقابل النصارى الذين حرموه من كل متعة، كان يتمتع بها. وفي هذا كله حنين إلى الوطن وشوق كبير يتأجج في صدره. ولعل الحنين إلى أيام السعادة لم يكن ابن الأبار يعبّر عنها من خلال بلنسية فحسب وإنما كانت عنده " نجد " و" حمص النعامى" من المواطن التي يشتاق إليها ويدعو لها . على عادة العرب ـ بالسقيا، متمنيا أن يطير إليها ولكن هيهات ! لأن جناحه قُصَّ وحلَّ البين مكان القرب، فصارت أيامه سودا في البادية بعدما كانت بيضا في حمص.وفي ذلك إشارة صريحة إلى انتمائه العربي، الذي يفخر به بخاصة وهو المهجَّر عنوة من قبل النصارى الذين احتلوا بلاده. فهو لا يزال متمسكا بحبل العروبة، الذي يأمل أن يجد قوته يستعيد متانته على يد الأمير أبي زكريا حلمه وحلم الأندلسيين من ورائه في تخليصهم من ربقة هذا العدو الظالم :

شَمائلُ أعرابيةٌ في اعْتياصِها ... أَمْطَنَ عن الحُبِّ (المُبَرِّحِ) والمَحْصِ[35]
سَقَى اللهُ دارَ المُزْنِ داراً قَصيَّةً ... على الشَّدِّ والتقريبِ والوخْدِ والنَّصِّ[36]
يَسائِلُ عن نجدٍ صَبَاها مُعاشرٌ ... وأَسْأَلُ عن حِمْصَ النَّعامَى[37]**وأَسْتَقْصِي**
ولوْ كنْتُ موفورَ الجَناحِ لَطارَ بي ... إليها ولكنْ حَصَّهُ البَيْنُ بِالقَصِّ
فَشَتَّانَ ما أيَّامِيَ السُّودُ أَوْجُهاً ... بِحِسْمَى[38]**وما لَيْلاتيَ البِيضُ في حِمصِ**
بِحيثُ أَلِفْتُ الوُرْقَ لِلشَّدْوِ تَنْبَرِي ... على نهرِها والقُضْبُ تَهتَاجُ لِلرَّقْصِ
وفي يَدِي تشْبِيبي قِيادُ شَبِيبَتي ... وخِلِّي وحِلْمِي مُسْتَقيدٌ و مُسْتَعْصِي
كِلانَا على أَقْصَى الهَوادَةِ والهَوَى ... فَلا عَذْلٌ يُقْصِي ولا غَزْلٌ يُفْصِي[39]

كما نظَم قصيدة أخرى طويلة في خمسة وستين بيتا، كان نصيبُ المقدمة الغزلية فيها ثُلُثَها يمدح فيها أبا زكريا ، ويصف رياضَ أبي فهر المشهورة. وكانت هذه المقدمة خالصة في الغزل عبّر فيها .كما ألفناه . عن عذاب الهجر، وألم الفراق، مشبها إياها بالمهاة التي تفترس بلحاظها الأسود الكواسر، فيتعدد قتلاها، ولا دية تقدمها.

ويظهر الشاعر في هذه الأبيات مغرما بها، معذبا بسببها، هائما في حبها، غيرَ صابر عنها متعجبا من قساوتها في تركه يتألم ولا تلتفت إليه، ويئنّ ولا تشفيه ،ويقول:[مجزوء الوافر]:[40]

نَــــأَتْ ومَزارُهـــــا صَـــدَدُ	فهــــلْ لـــكَ بالمَعَــــادِ يَــــدُ
مَهـــــاةٌ مِـــن بنـــي أسَـــدٍ	فريسَــــــةُ لَحْظِهـــــا الأسَـــــدُ
تَفُـــوتُ العَـــدّ قَتْلاَهـــــا	ولاَ ديَّـــــــةٌ ولا قَــــــــوَدُ
نَمَتْهـــا الصّـــيدُ مِـــن مُضـــرَ	وفيهـــــا البيــــــتُ والعَـــــدَدُ
ورَبَّتْهـــــا القُصُـــــورُ البيـــــ	ضُ لا العلْيـــــــاءُ والسَّــــــنَدُ
....	....
أَتَاهـــــا أَنَّـــــني وَصِـــــبٌ	كمَـــا شـــاءَ الهـــوَى كَمِـــدُ
إذا مـــــا النـــــومُ نَعَّـــمَها	يُعـــــذِّبُني بهـــــا السُّــــــهُدُ
....	....
أهـــيمُ بهـــا ولا عَـــــذْلٌ	يُنَهْنِهُـــــــــــني ولاَ فَـــــــــنَدُ
هَواهَـــا جَـــلَّ فـــي خَلَـــدِي	فَيَـــــا مـــــا أُودِعَ الخَلَـــــدُ
وصَـــبري بَـــانَ مُـــذْ بانَـــتْ	فَـــــأنَّى الصَّـــــبْرُ والجَلَـــــدُ
وكُنـــتُ أَصِـــيحُ:وَا كَبِـــدِي	وكيــــفَ؟وليسَ لِــــي كَبِــــدُ
وقـــالوا: قلبُهَـــا حَجَـــرٌ	فقُلـــتُ : وثَغْرُهــــا بَـــرِدُ
مِـــنْ عَجَـــبٍ قَسَاوتُهــــا	ومِــــلْءُ أَديــــمهَا الغــــيَدُ

وقد عرفنا من خلال تتبع المقدمة الغزلية الأبَّاريَّة بأنها سارت وفق ما رسمها ابن قتيبة للشعراء. وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي . عند ابن الأبار، الذي نجده يتشبّب بأعرابية أصيلة، يعود نسبُها إلى " مُضَر " وقبائل عربية أخرى ، وتسكن الصحراء

كما ألفيناه في بعض قصائده يمزج هذه المقدمات بأدوات الحرب، كأن الشوق إلى المعارك بات يؤرّقه، ويطارده خياله ؛لأن هذه الحرب هي الوسيلة الوحيدة، التي تعيد إليه أيامه الحلوة في بلنسيته، وتسمح له بأن يلتقي من جديد مع أهله خلانه، الذين أبعدهم عنه العدو.

ب . مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام :

ومن المقدمات، التي اعتبرها النقاد ثانوية، نجد في ديوان الشاعر مقدمات في الشكوى من الدهر والأيام. ولم يكن هذا اللون حديثا، بل هو قديم قِدم الشعر العربي ينقل الصراع الدائم بينه وبين الإنسان، ينتهي في كل مرة بانهزام هذا المخلوق الضعيف لأن للدهر جبَروتاً لا يقاوَم ومفاجئاتٍ كثيرةً، غير منتظرة، يطل بها على البشر فيعكّر صفو حياتهم، تاركا آثارا دليل القوة والجبروت ؛من ظهور الشيب، وتقوّس الظهر ونحول الجسم وغيرها من علامات القهر والغلبة.

وإن لم يتحوّل هذا الصراع الأزلي (الإنسان والدهر والأيام) إلى موقف فلسفي، كما نجده عند طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة، ولدى المتنبي والمعري إلا أن حضوره في الشعر الأندلسي بعمق فكرٍ وعميق تصورٍ كان له نصيبه.[41]

وكان ابن الأبار الشاعر الموحدي قد شكا الدهر والأيام في أكثر من مناسبة، وقد تخللت هذه الشكوى أبيات الشاعر ؛منها هذه القصيدة، التي جعل الشكوى مقدمةً لها بمناسبة مدح أبي زكريا، واستعطافه أثناء غضبه عليه. تمنى من خلالها الموت على أن يبقى بعيدا على ما يقيم الأودَ والمحبة؛ لأن حاله لم يتغيّر؛ فيومه كأمسِه خيبةً، والأبواب في وجهه أبدا موصدةٌ بخاصة لمّا أغلق دونه باب الأمير، الذي كان مفتوحا على مصراعيه. يقول الشاعر : [الرمل]:[42]

أسْـــرَفَ الـــدَّهرُ فهـــلاَّ قَصَـــدَا   مـا عليـهِ لـوْ شَـفَى بـرْحَ الصَّـدَى
يَنْقَضِـــي يـومِي كأمْسِـــي خيبـــةً   أبَـــدًا أَقْـــرَعُ بابًـــا مُوصَـــدا
طـــالَ قَـــدْحِي لأَمـــانٍ أُخْلِفَـــتْ   وعَنـــاءٌ قـــدحُ زَنْـــدٍ صَـــلَدَا
آهٍ منهـــا نبْـــوةً مُـــذْ سَـــدِكَتْ   لـــم تُلَبِّـــثْ نافقـــاً أنْ كَسَـــدا
....
كَـمْ تمَنَّيْـتُ الـرَّدَى فـي عيشـةٍ   ضَـرَباً صـارَ لهـا صُـلْبُ الـرّدى
لا أودُّ العُمـــــرَ ألقـــــاهُ إذَا   عَـــزَّ فيـــهِ مـــا يُقيـــمُ الأوَدا
....

إلا أن الشاعر يعود في آخر المقدمة، وقبل أن يشرع في مدح ممدوحه يُمنِّي نفسه بصلاح الحال، وأن الأمل يبقى دوما مرجوًّا، وثقته في الأمير وعفوه لا يمكن أن تتزعزع:

أنـــا جـــارُ البحْـــرِ إلا أنَّ لـــي   منـــه فـــي حـــالِ الـــورودِ الثّمـــدا
وعلـــى ذلـــك يـــا نفســـي فَـــلا   تَيْأَسِـــي إنَّ مـــع اليـــومِ غـــدا

وتبقى الشكوى من الدهر والأيام عنوان أشعاره الكبيرَ؛ لأنه لم يهنأ تطلع إلى الحياة إلا بقليل حُلوها، أما باقي حياته، فقد قضاه في هم وغم كبيرين؛ من أهله تارة، الذين لم يستطع إقناعهم بتصرفاته، ومن الحكام الحفصيين، الذين

يترصدون بمساعدة الوشاة والحاقدين له والحاسدين علمَه ونجاحاته خطواتِه أينما حلَّ وارتحلَ، فيبعدونه أحيانا ويهملونه أحايين حتى جعلوه يندم على التقرب إليهم، على الرغم من أنه لا ملجأ إلا إليهم، فكانت آلامه في ازدياد، وأحلامُه في ابتعاد.

ج . المقدمة الطللية :

وفي قصيدة بلغت أبياتها سبعةً وسبعين في مدح أبي زكريا و وليّ عهده أبي يحي وأولاده الثلاثة الآخرين، وكان ذلك في بداية التحاقه بتونس، تضمنت المقدمة فيها واحدا وعشرين بيتا، استهلها بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين[43]، نادبا الرسوم الدارسة والأماكن الآفلة، التي صارت مرتعا للنوق والجمال، متذكرا أيامه السعيدة التي لا يكدر صفوها شيء، يقول الشاعر: [البسيط]:[44]

طَلَّتْ نجيعي [45] أطلاءٌ وأطلالُ　　بِحيثُ يُعْقَدُ إحرامٌ وإحــلالُ
مَنازِلُ كانتِ الأقمارُ تَنْزِلُها　　بِالخِيفِ خَفَّتْ بهم نُوقٌ وأجمالُ

ثم يستطرد في وصف محبوبته، مشبها إياه بالثريا تارة وبالغزال تارة أخرى، ومحاسن جسمها؛ من قدها القويم وردفها ومعسول ريقها، ومعاناته من صدها، ويذكر كلام اللوّام والعذال، الذين يترصدون خطاه، ويتتبعون حركاته. وهو في كثير من مقدماته لا ينسى أن يذكر أدوات القتال الحربية بجنب أدوات الإغراء الجسدية، وما تتزين به فيقول:

والسيفُ والرُّمحُ لا أرجُو دفاعهُما　　إذا تَمَرَّسَ بِي قُلْبٌ وخَلْخَالُ

ومن خلال هذه القصيدة، ذات المقدمة الطللية الفريدة يتبين مذهب الشاعر الفني تجاه هذا النوع من المقدمات ، الذي يقف منه موقف أبي نواس وغيره من الشعراء الذين طرحوا هذه المقدمة الطللية، فيقول ابن الأبار [الطويل]:[46]

أَشِدْ بِالقوافِي ذِكْرَ عَلْوَةَ أوعلْيَا　　و دَعْ لِلسَّوافِي دَارَ مَيَّةَ بِالعلْيَا

وعملا بهذا المبدإ الأبّاري . ههنا . اكتفى الشاعر بهذه المقدمة الوحيدة، إلى جانب حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية أخرى.[47] لعلّ ذلك كان من باب بيان المقدرة على التأليف والبدء بمثل هذه المقدمات لا غير .

واللافت للانتباه أن ظاهرة وصف الطلل قد كان لها حضورها المتميز في الطورين اللّذيْن سبقا طور الموحدين؛ أي عصري الطوائف والمرابطين، عند كل مِن ابن شُهيد وابن زيدون وأبي إسحاق الإلبيري وابن عمار وغيرهم .[48] وعلى الرغم من ذلك لم يكن ابن الأبار في هذه القضية امتدادا لِمَنْ سبقوه كما ألفنا أن نجد لدى الشعراء بشكل عام.

د . المقدمة البحرية :

وتعد هذه المقدمة تطويرا لمقدمة الشعراء القدامى، التي كانت على متن الإبل في البرّالى وصف الرحلة عبر السفن، على نحو ما وُجد عند بشار، وأبي الشيص ومسلم بنوأبي تمام، وغيرهم.[49]

كما أنشأ الشاعر عند التجائه إلى الحفصيين ببجاية في طريقه إلى تونس، وذلك أواخر سنة 636هـ. يمدح أبا يحي وليّ عهد أبي زكريا، وأمير بجاية، مبتدئا بمقدمة، وصف فيها رحلته في واحدٍ وعشرين بيتا، ذكر من خلالها سمو غايته، الذي جعله يخوض غمار هذه الرحلة الشاقّة إلى الممدوح، مستهينا بذلك، مادامت المقاصد مشروعة، والغايات ضرورية متسلحا بالصبر، عازما على المضي قدُما، معتزلا رغد العيش ولذات الكرى جادا في مسعاه، لا تنثني له عزيمة، ولا يرده عن غايته سببٌ، طامح الهمّة، غيرَ مُبالٍ بالصعاب لافتا نظره إلى وطنٍ غادره مُكرَها، ثوى فيه العدو، فبدا المعروف منكرا وفتح الشرك فمه ليلتهمه، بعد أن احتل مكان الإيمان في الأندلس، فخلَق فيها أزماتٍ وانثنَتْ لأهلِهِ عزماتٌ لولا بشرى يستبشر بها بنجاحِهِ في سيره، وبلوغه مرادَهُ؛لأنه يكفيه بعد كل هذا العناء وصولُه إلى الأمير المرتَجَى عونُه وخدمتُه .

وقد أحسنَ الشاعر ههنا في ربطه بين هذه المقدمة، التي وصف فيها خروجه بحرا فارًّا من العدو، وقد لاقى في ذلك الصعاب والأهوال، لائذا بالأمير المأمول منه المساعدة وتخفيف الوطء.

وهي القصيدة الوحيدة في الديوان، التي ابتدأت بمقدمة بحرية، وفي ذلك خروج عن تقاليد الشعراء القدامى، وتعد ابتكارا، يضاف إلى التحوير في أقسام بُنى القصيدة التي أشرنا إلى بعضها في بداية الحديث عن المقدمة بشكل عام، ولكن ليس ابن الأبار هو صاحبه : [الرمل]:[50]

عَبَـرَ البحْـرَ يَـؤُمُّ الأبحُـرا ... آمِنًـا فـي وردِهِ أنْ يُصْـدِرا
وامْتَطَـى اللُّجَّـةَ خَضْـراء بمَـا ... أَلِـفَ العـيشَ لـديهِم أخْضَـرا
خـاضَ صَـدْرَ الهـولِ جَهْمًـا عابسـا ... يَنْتَحِـيهُمْ ضـاحِكًا مُسْتَبْشِـرا
وسَـمَا لِلغايَـةِ القُصْـوى علـى ... خَطَـرٍ أَحْـرزَ عنـه الأخْطَـرا

....

فَلَـهُ البُشْـرى بِمَرْمَـاهُ الـذي ... أَنْجَـحَ السَّـيْرَ عليـهِ والسـرى
و بِمَرْقَـاهُ إلـى مرتبَـةٍ ... هَـوَتِ الأنـجُمُ عنهـا مظهـرا

وبالمقدمة البحرية أراد ابن الأبار أن يخرج قليلا على قانون القدامى، الذين كانوا يرحلون إلى ممدوحيهم عبر الإبل، واختار أن تكون السفينة هي وسيلته إلى الحفصيين لأنهم كانوا الأقوى آنئذٍ، والأكثر مدًّا للعون والمساعدة لغيرهم من المسلمين، بفضل تأييد المدن العربية الأخرى لهم، واصفا هذه الرحلة البحرية الشاقة، التي ساقته إلى أبي زكريا ليستعطفه ويستنجد به لنصرة الإسلام في أرضه والمسلمين بعامة . وقد كانت هذه القصيدة الوحيدة ،التي قدم لها بمقدمة بحرية .

وقبل أن يتخلص ابن الأبار إلى ممدوحه يقتطع أبياتا قليلة، لكنها في الحقيقة تلخص معاني كثيرة؛ تحمل أمارات الحاضر، الذي آلتْ إليه الأندلس بعامة، وبلنسية؛ مرتعِ صباه بخاصّة نذكر من ذلك ثلاثة أبيات كانت أصدقَ تعبير لِلآمِنِ المرحَّل والكافر المسيطر، الذي يفغَر فاهُ ليلتهم وطنًا غيرَ وطنِه، ويسلب أرضا لا حق له فيها، وليتَهُ كان كلبا كُلَّما عوى أُلْقِمَ حَجَراً : [الرمل]:[51]

ضاربا في هذا الخطاب على الوتر الديني (الإيمان والشرك) ليحرك قريحة المستنجد به . وملونا صوره البديعة بالمطابقة المناسبة(راح وغدا ، مَنْ آمن ومن كفر، راحلا ويحتلها ،..)

وما لهذه الطباقات من مفارقات دلالية، تبين بوضوح أن الأمر جلَلٌ، ولا يحتمل التأخر وأن القضية لم تعد قضية احتلال عادية لمدينة إسلامية، أو من قوي لِضعيفٍ، بل قضية صليبية، لا بد أن ينظر إليها من منظار الدين (الأمانة) وضرورة الحفاظ عليه من طرف الجميع لاسيما إذا كان في يد أحدهم إمكانية ذلك ؟ !!.

ولعلّ النمط الذي وجدناه لدى شعراء الموحدين؛ ونخص بالذكر هنا أبيات ابن الأبار فقد كان هذا الهيكل لقصيدة سادت حقبة من الزمن، وظلت تكرر صورتها، إلى أنْ وصل إليه (النمط).

غير أن هذا لا يعني انغماسه الكلي فيه، فلقد سجّلنا من خلال تتبعنا لقصائد الشاعر، أنه قد مالَ بعض الشيء عن هذا التقليد، غيرَ حافلٍ بالمنحى الفني السائد والمألوف، وصار يسمح لنفسه بأن يخرج عن ذلك؛ وما القصيدة، التي قدّم لها بمقدمة بحرية . إلا دليل على ما ذهبنا إليه، فهو لم يغرم بوصف السفينة، كما فعل الجاهلي مع ناقته، ولم يسترسل في الكلام فيها . ولكنه قصدَ الغايةَ لا الوسيلة؛ لأنها . بالنسبة إليه أهمُّ . وتتمثل في الوصول بشتى الطرق إلى ممدوحه ،الذي يسارع إلى لقائه مسارعة اللهفان،لا لأجل كسب ودّ، يتهافت عليه غيرُه، وكان له أن يستغل الموقف ويفعل ذلك، وينال ما يريد ويحظى وحدَه بما ينشده كل طامع ومنتهزٍ، ولكنه أبَى ألاَّ يقع في مثل هذا (الشَّرَك) المُغري؛لأنه ببساطة رَجُلُ دولةٍومُوفَدٌ مِن قِبلِ مسْؤولٍ عن دولة (ابن مردنيش)؛ حاكم بلنسية؛ ليحافظ عن دولة ويَحْفَظَ لها مكانتها التي ضاعت أو كادت . آنَئذٍ . أن تضيع بين أيدي النصارى .

فالتقليد الفني هنا (وصف الرحلة والراحلة (السفينة)، قد حدَّد له أبياتا قليلة ، صارت غير ضرورية؛ لأنها لم تكن مقصودة بذاتها؛ لأنها كانت الوسيلة، لا الغاية لا غيرَ . والثانية عنده وعند الأندلسيين المنتظرين أشرف وأغلى ،وأكثر قصداً من الأولى؛لأن المأمورية التي كُلِّفَ بها تُملي عليه حتى الإطار الفني، إلى جانب الإطار الموضوعاتي .

ولا نبعد على المقدمة من الجانب الفني، التي تضم في حناياها **الرحلة، التي** أحسسنا أننا لم نفِهَا حقَّها، بخاصة وأننا نتحدث عن أقسام القصيدة العربية؛ من المطلع إلى غاية الخاتمة.

فالحقيقة ،التي تفرض نفسها ههنا، وهي أن" الرحلة " كعنصرٍ فني تقليدي دَأَبَ عليه الشعراء القدامى، وتناولوا أشكالها المختلفة، أردنا من خلالها أن نوضح لمّا كانت عند الجاهليين؛ فقد كانت وسيلتهم "الناقة "؛ يصفونها، ويحرصون على ذكر طائفة من النعوت كالصلابة،والامتلاء أو الضمور، والتحمل والشدة والسرعة .

يَـا لَسَـاحاتٍ ثَـوَاهُنَّ العِـدَى — فَبَـدَا الانعـروفُ منهـا مُنْكَـرَا
راحَ مَـنْ آمَـنَ عنهـاَ راحِـلاً — وغَـدَا يَحْتَلُّهَـا مَـنْ كَفَـرَا
فَغَـرَ الشِّـرْكُ عليْهـا فَمَـهُ — ليْتَـهُ أُلْقِـمَ فيهـاَ الحَجَـرَا

ويشيدون بها ؛ لأنها تحمل أمتعتهم وقلوبهم على هوادجها على السواء ؛ لذلك نجدهم يتتبعون خطواتها ؛خطو خطوة ،وقلوبهم تهتز لذلك دفقة دفقة ، وهي تقطع لمصيرها وعبر مسارها المسطّر صحراء شاسعة، واسعة ،يلفح وجوهَهُم حَرُّ شمسها ، وينير ظلامَ ليلِهم نُورُ قمرها .

هذه صور لا نجدها في شعر ابن الأبار ؛لأن البيئة غير الأخرى ؛فراحلتُه سفينةُ الماء لا سفينة الصحراء، التي ألِفَهَا : [الرمل]:[52]

وامْتَطَى اللُّجَّةَ الخضْرَاءَ بِمَا   أَلِفَ العيْشَ لدَيْهِمْ أخْضَرَا

وإذا كان الشاعر الجاهلي يصف راحلته (ناقتَه) باعتبارها جزءً لا يتجزّأُ من كيانه وصورة لا تنقطع عن حياته ،بحُكم حياته الرعوية ،التي تفرض عليه . دومًا . الانتقال من مكان إلى آخر، بحثا عن الماء والكلإ، وليس تصويرا تخييليًا، مجنحًا، وإنما رسمٌ لِصورةٍ عاشها مُذْ عرفها (الناقة) فأَلِفَهَا وألِفَتْهُ ،ونشأتْ بينهما علاقة حميمة، لا يفرّق بينهما ظرفٌ إلا الموتُ؛ لأنها تمْثُلُ أمانَ عينيْه صباحَ مساءَ، وتحمل أوزارَه،آماله وآلامه وهودجَ حبيبته فصار حبُّه لِناقتِه من حبّه فتاته .

أما الشاعر الأندلسيُّ . ابن الأبار . راحلته المائية . كما أسْلفنا . وإنما يُعرضُ عن ذلك ويسرد الأهوالَ ولخطوب التي لاقاها . باقتضاب . مقارنة سرد الجاهلي . ونظرا للمهمة التي خرج من أجلها فلا نجده في مقدمته البحرية بخاصة ،إلا أنه يتحدث عن أنَاهُ:(امتطى، خاضَ، سما، ياله معتزما، أظفره الصبرُ ،جدَّ مجبولاً، منه، طامح الهمة، لا مقتصدا ولا مقتصرا، حالتيْه، طعِمَ الشهدَ، ذاقَ الصّبِرا، لا يبالي، ...)[53]

وغيرها من الألفاظ الدالة على أنه كان المقصود بهذه الرحلة (الغاية) متناسيا الوسيلة، التي لولاها ما كان ليصل إلى هدفه المنشود، وغايته الأسمى (أبي زكريا) عكسَ ما كان يفعل الشاعر الجاهلي؛ الذي يفرد لِلناقة كلَّ الموضوع. وهذا فارق كبير بين الجاهلي وبين الأندلسي .

هـ . المقدمة الخمرية :

لم تكن المقدمة الخمرية عند الشاعر تقليدا يدعو إليه، كما فعل بشار وأبو نواس وإنما هي عنده؛ لأجل الثورة عليها وتركها .

وعلى الرغم من تأثر ابن الأبار بأبي نواس . وهذا ما سنعرض إليه لاحقا ،في الفصل الثاني . إلا أنه خالفه في مقدمته التجديدية، التي دعا إليه هو ومَنْ ناصَرَه . والدليل على ذلك أنها المقدمة الوحيدة التي تضمنها ديوانُه .

وفيها يعرض إلى وصف مجلس الندامى، الذين تُدار عليهم الكؤوس، فينتشون . ولم يكن ذلك يُغري الشاعر ،ويجذبه إليه؛ لأنه مأخوذ بالعسل الأبيض، الذي يدمن عليه ويفضله.

والمتأمل في حياة الشاعر، لا يجد في كل مراحلها حديثا عن مجالس الخمر، التي كانت تقام على ضفاف الأنهار، وفي قصور بعض الملوك. وبالمقابل كان يُعرف عنه تقواه وورعُه، الذي كان دليل قوة إيمانه، وهو الإمام الحافظ،المحدّث، والفقيه، والعالم والقاضي في بعض شؤون الناس، الذين يشتكونه مشكلاتهم، ويستفتونه أمور دينهم.

يقول الشاعر : [البسيط]:[54]

لا أعْصِرُ الخمرَ بلْ لا أغْرسُ العِنبَا — حَسْبِي ثُغُورٌ تبيحُ الظّلْمَ والشَّنبَا
إذاَ تُدارُ على صاحٍ سُلافتُها — يومًا تَهافَتَ سُكْراً وانْتَشَى طَربا
وظلَّ يَهْزَجُ في أثناءِ نشْوتِه — حتَّى كأنَّ دَمَ العُنْقودِ ما شربا
قُلْ لِلنّزيفِ بها: أَدْمنْ على ثِقَةٍ — فلاَ جُناحَ على مَنْ أدْمَنَ الضربا[55]

وقبل أن يشرع في مدح الأمير أبي زكريا . وهو الغرض الرئيس . يردف المقدمة الخمرية بموضوع النسيب، يذكره في سياق وصف الرحلة إلى ممدوحه، عبر رحلة محبوبته (خولة)، التي لا نعلم إن كانت امرأة حقيقية أحبها الشاعر ،أم أنها رمز لامرأة . أي امرأة . فيصف رحلتها، وقد علّقت معها قلبه، فتأثر لذلك بدنُه، بعد أن أرادوا حجبها عنه ونسوا أن الشمس لا تُحجَب، فيقول مخاطبا أهلها، الذين حرموه منها وحجبوها عنه:

ساروابه دون جسمي كيف صاحَبَهُم؟ — ولا قَوامَ لَه إلاّ إذا اصْطُحِبَا
يا آلَ خَولةَ لا آلُو مَضاربَكم — حَوْما عليها رجاءَ الوردِ إذْ (عَذُ)بَا
وإنْ حَجَبْتُم عن الأنظارِ هَودَجَها — فحاجِبُ الشمسِ لا يَخْفَى وإنْ حُجِبَا
ما ضَرَّكم لوْ قفَعْتُم من تعلُّقِها — بأنْ يسُوقَ (لها) المُهرية النُّجُبا
لَئِنْ بَخلْتُم بِنَزْرٍ ليسَ يَرْزَؤُكم — لَتَفْضَحُنَّ بِما تأتونه العَربا

وقد أحسن الشاعر في الربط بين هذه المقدمة، ذاتِ الموضوعيْن، وبين الموضوع الرئيس الذي جعله مدحا الأمير الحفصي حين يقول:

أَليسَ يُغْديكُم جُودُ الأميرِ على — قَاصٍ ودَانٍ بِما يسْتغرِقُ الطَّلَبَا

إن مقدمة الشاعر الخمرية، تندرج ضمن ما سبق وأن أشرنا إليه؛ وهو أن الحديث عنها ليس من باب التمسك بها، ولا الدعوة إليها، وإنما من أجل تركها وهجرها كما فعل مع المقدمة السالفة (الطللية). ومن هذا يتبين أن الشاعر،العالم ، الفقيه المحدّث والحافظ للقرآن الكريم منذ صغره يطرح فكرة المقدمة الخمرية تعففا على الرغم من تأثره بالداعي إليها (أبي نواس) .

والمتأمل في هذه المقدمة يجدها تفترق عن مقدمات غيره من الشعراء، الذين يسرفون في هذا الموضع في الحديث عن مجالس اللهو والأنس والعربدة، يصفون الخمر وعتقها ولونها كؤوسها وساقيها أو ساقيتها وسلطانها وأثرها على شاربيها، الذين يُقْبِلون عليها لقتل الهموم ونفي الأحزان، وإحياء النشوة والسرور كما فعل ابن الرومي [56]، وأبو نواس وغيرهما.[57]

و . المقدمة الحماسية :

للشاعر ابن الأبار قصيدتان مشهورتان؛ هما الهمزية السينية. تدخل كلتاهما في باب الاستنفار لتخليص الأندلس .

فأما الأولى فهو لا يروي الأحداث بهدوء وحياد، وإنما يُسمِع صوته عاليا ،مُدويا ؛لأن بلاده الأندلس تئنُّ تحت وطأة العدو الغاشم ، فهو حامل مسؤولية وطن مشرّد، ومهمته تصب في قالب الفكر الحضاري العربي، والدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية ضد الغزاة الصليبيين

فكانت النزعتان في شعره نزعتين : حكائية سردية ملحمية، يصف فيها المعارك ويرسم مأساة الوطن الأندلسي بشكل عام . ونزعة درامية حزينة، يعبّر بها عن شحنة عاطفية تتأجج في صدره، وتعتصر أنفاسه، دالة على أهمية الموضوع ،الذي لا يجوز لأي كان أن يتأخر عنه كواجبٍ عالقٍ في صدر كل مسلم يغار على دينه، ويبكي لحال أهل وطنه العربي الإسلامي الكبير. إلى أنْ يصل إلى المستنجد به أبي زكريا فيجعله حامي الحِمى، والذائد عن الدين ، مبشرا الأندلسيين بقرب الفرج ،الذي سيكون بمشيئة الله على يديه [الكامل]:[58]

بُشْـرَى لأَنـدَلُسٍ تُحِـبُّ لِقـاءَهُ ويُحـبّ ُفـي ذاتِ الإلَـهِ لِقَاءَهـا

والشاعر في هذا الموقف يبين عن نهجه في الاستنفار، بأن يتَفَادى الغزل والنسيب في مثل هذه المواقف التي تقتضي من صاحبها أن يتوجه مباشرة إلى وصف الأساطيل والجيوش الجرّارة،التي يكون بناصيتها الفلاح والنجاح ..، وذلك عندما يقول [المديد]:[59]

دَعْ أساليبَ النّسيبِ و خُـذْ فـي أسـاطيرِ الأسَـاطِيلِ
أخـواتُ الخيـلِ سـابحةٌ ذاتُ تَـزْيينٍ وتزْييـلِ
وبنَـاتُ المـاءِ صـائلَةٌ كالأفـاعِيِّ الأفاعيـلِ

وأما في قصيدته السينية، التي كانت في الحقبة التاريخية قد نظَمها الشاعر قبل الهمزية التي لم ينسبْها " المقَّري " إلى أحد من الشعراء .كما أشرنا نقلا عنه في مناسبة سابقة . فقد أنشأها بعد أن ركب السفينة وقصد أبا زكريا المنشود عونُه، والمرجوُّ مَدَدُهُ وكان الحديث في بداية الأمر على الخيل والأسلحة والأسطول البحري، الذي سيشارك في المعركة التي يتمناها الشاعر المستنجد أن تكون الفاصلة بين الحق والباطل ،وبين المسلمين والكفار .

وكان الحديث حسب القصيدة التي بلغت أبياتها سبعة وستين بيتًا تتكون من مقدمة ممزوجة بالدعوة إلى إعداد خيول الله (الجهاد) ؛لأن ما وصل إليه أهالي الأندلس ومقدساتها والحيف الذي لحق بأهلها ، والفساد الذي استشْرى بأرضها ، وبين إشارة واضحة أن المأمورية كانت على متن السفينة ، عندما يقول الشاعر [البسيط]:[60]

وَافَتْـكَ جاريَّـةً بِـالنُّجْحِ راجيّـةً مِنـكَ الأميـرَ الرِّضَىوالسّـيّدَ النَّدِسَـا
خَاضَـتْ خُضَـارَةَ يُعْليهاويُخْفِضُـها عُبَابُـهُ فتُعَـانِي اللِّـينَ والشّرِسَـا

ورُبَّمَــا سَــبَحَتْ والــرِّيحُ عاتيَّــةٌ كمَـا طَلَبْـتَ بِأَقْصَـى شـده الفرسَـا

كما أنشأ ابن الأبار قصيدة بمناسبة ولاية العهد لمحمد المستنصر، وكان ذلك في 12 من ذي الحجة سنة 646هـ في ثلاثة وعشرين بيتا ،كان نصيب المقدمة الحماسية فيها ثمانية أبيات قال فيها :

مِــنْ كـلِّ رقْـراقِ الفِــ(رَنْــ)دِ كأنَّــهُ نِهْــيُ إذاَ ماالغمْــدُ عنــهُ جُــرِّدا
ومُثَقَّــفِ ذَلِــقِ السِّــنَانِ تخالُــهُ فــي السّرْدِ يخـرُقُ جانبيْـهِ مُسّرَداَ
قســمَ الجبَــابرةَ الــذينَ تمَــرَّدُوا وتسَـنَّمُوا صــرْحَ الشــقاقِ مُمَـرَّدَا
أيــنَ ابــنُ غانيــةَ وأيْــنَ غَنَــاؤُهُ لا مُلْجِــدٌ إلاَّ وأصْــبحَ مُلْجِــدَا
وحكـتْ أجـادِلُ زُغْبَـةَ زُغْـبَ القَطَـا وغـدَتْ ريـاحُ بنــي ريـاحٍ رُكَّــدَا
زُهْــرٌ مَنَاقِبُــهُ أَبَــتْ علْيَــاهُ أنْ تَلْقَــاهُ إلاَّ وَاعِــدًا أومُوعِــدَا
لــمْ أَرْضَ إلاَّ بِــالنُّجُومِ منَــزِلاً لَمَّـا حَـدَا بِـي لِلسَّـعادَةِ مَـا عَـدَا
إنِّـي رَحَلْتُ إليـهِ فـي طلَـبِ العُلَـى لأَكُــونَ عَبْـدًا فــي ذُرَاهُ سَـيِّدَا

استهلها بوصف سيفٍ لا مثيلَ له، يشبه إذا ما جُرِّدَ مِن غمده بغدير، وبمثقَّفٍ حادّ السنان قُضيَ به على كل جبَار، متعنّت ومتمرد، ضاربا المثل بابن غانية الذي كان بقومه مصدر قلق الموحدين، بفضل الخطورة التي كانوا يمثلونها ضدهم، فانبرى لهم أبو زكريا الحفصي وقضى على آخرهم سنة 631 هـ . ثم ينقل إلى مدح ممدوحه وليّ العهد (المستنصر) رابطا بذلك مقدمته الحماسية بالغرض الرئيس المناسب لها .

وفيما يلي جدول بياني لنوع المقدمات في شعر ابن الأبار، وعدد القصائد وعدد أبياتها مع عدد أبيات مقدمة كل نوع :

نوع المقدمة	عدد القصائد	ع.أبيات القصيدة	ع. أبيات المقدمة	الغرض الرئيس
المقدمة الغزلية	25 قصيدة	من:16 إلى:77بيتًا	من:12 إلى:42	مدح، وصف
م. الشكوى	04 قصائد	من:19 إلى:71بيتًا	من:06 إلى:29	مدح ،رثاء ،استعطاف
المقدمة الطللية	واحدة	77 بيتًا	21 بيتا	مدح
المقدمة البحرية	واحدة	78 بيتًا	20 بيتا	مدح
المقدمة الخمرية	واحدة	45 بيتًا	15 بيتا	مدح
المقدمة الحماسية	03 قصائد	من:23 إلى:90بيتًا	08 أبيات	استنفار، مدح

والمتمعن في هذا الجدول، ومن خلال النماذج القليلة ،التي اعتمدناها في الحديث عن مقدمات ابن الأبار المتنوعة يتبين لنا أن هذه المقدمات على اختلافها قد تنوعت بين الطول والقصر، كما أنها قد جمعت في حناياها قبل التخلص إلى غرض القصيدة الأساس معاني عديدةً؛ من مثل الجمع بين الطلل والرحلة والغزل ،إضافة إلى الشكوى من الدهر والأيام وكذا وصف الطبيعة.

كما أن الناظر إلى هذه المقدمات . أيضا . يجد الحظ الأوفر كان من نصيب المقدمة الغزلية، عمد إليه الشاعر تقليدا منه للشعراء القدامى، الذين اختطّ طريقَهم ابنُ قتيبة الدينوري ((**ليُميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه،وليستدعيَ به أصغاءَ الأسماعِ إليه لأن التشبيب قرب من النفوس ،لائطٌ بالقلوب...))** [61] ، وكان ذلك مناسبا للغرض الرئيس الذي يتخلص إليه، والذي كان في الأغلب الأعم مدحًا ،إلى جانب قليل من الوصف اقتضته مناسبات معينة ؛كوصف رياض أبي فهر البديعة، التي كانت محل فخار السلطان، وبصمة بستانيّ الحفصيين الخاصّة، بينما جاء في المرتبة الثانية مقدمة الشكوى من الدهر والأيام التي لم تُسْعِفه في حياته كلها، نلخّصها في ثلاثة أبيات له متفرقاتٍ ،إذ يقول في الأول [الوافر]:[62]

أَبَيْنٌ وشَوْقٌ وارتياعُ؟ لَقَدْ حُمِّلْتُ ما لا يُسْتَطَاعُ

ويقول في الثاني [الوافر]:[63]

إلَى مَنْ أَشْتَكِي صُنْعَ اللّيالِي بِنَا وتَفَرّقَ الحَيِّ الجَمِيعِ

ويقول في الثالث[الكامل]:[64]

لَوْ أنَّ ثَهْلاَنَا تَحَمَّلَ بَعْضَ مَا حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى ثَهْلاَنِ

كما يلاحظ ورود نسبة هاتين المقدمتين (الغزلية ومقدمة الشكوى) عالية ،مقارنة بالمقدمات الأخرى؛ أي بنسبة 54.54 % و40.48 % على التوالي، هذا بحساب أعلى عدد أبيات كلتا المقدمتين . ويمكن تعليل ذلك بأن غلبة المقدمة الغزلية مردُّه إلى أن الشاعر كان يسير وفق ما رسمه الأقدمون .كما أسلفنا . محافظا في ذلك على نهجهم دون الحيد عن سمتهم . بينما يُعْزَى كثرة ورود مقدمة الشكوى إلى أن ابن الأبار كان قد عانى في مرحلتي حياته (الأندلسية والإفريقية) معاناة شديدة، وبخاصة في تونس ،التي وجد فيها . وهو الغريب الوافد عليهم . مالم يكن يتصور . وهو العالم والمتفوق وصاحب البأو والكبر . الذي جلب عليه سخطا شديدا، وتبرّما من طباعه كبيرا حتى مِن قِبلِ الذين استقدموه، فعاش الغربتين .

أما إذا انتقلنا إلى المقدمتين التاليتين (الطللية والبحرية)، فأول ما يمكن تسجيله تقارُبُهما في كل شيء؛ من حيث عددُ القصائد، الذي كان في كل منهما قصيدة فريدة ومن حيثُ عددُ أبياتهما، وعددُ أبيات مقدمتيْهما، انتهاءً إلى الغرض، الذي كان مدحا لأبي زكريا و وليّ عهده . ويمكن تبرير هذه النسبة القليلة بأن المقدمة الطللية، كان إيرادُها من أجل الثورة عليها والدعوة إلى الابتعاد عنها، على الرغم من أن الشاعر ذاتَه كان قد تتبع خطوات ابن قتيبة في رسمه الذي اختطّه لشعراء قبلَه، وقد تبيّن ذلك جليًا في المقدمة الغزلية إلا أنه مع المقدمة الطللية خالف القاعدة وخرج عن المطلوب منه وممّن قبلَه.

ويمكن عزوُ هذا الخروج عن النمط المألوف إلى بيئة الأندلس المتحضرة قد فرضت عليه أن يعيش واقعا غير واقع شعراء البداوة ،يضاف إلى ذلك أن الظروف ،التي يحياها يوميا صرفته إلى ما هو أهم، فأراد أن يسهم في تخليص وطنه من ربقة العدو الجاثم على أرضه كما يمكن أن نتصور معه وهو الشاعر المسؤول عن قضية وطنية وقومية

وإسلامية لا يريد أن يبكي طللاً ؛ لأنه متشوق إلى أن يعود إلى بلنسيته قبل أن تغدوَ كذلك (طللا) على الرغم من أننا نجده في قصيدتيْه الاستنفاريتين (السينية والهمزية) قد أشار إلى ما آلت إليه بلاده من محو معالم إسلامية، وتدنيس مقدسات دينية، وطغيان صوت النواقيس في الآذان على الأجراس، فأملُه في الرجوع إلى موطنه لم ينقطع مادام هناك أبو زكريا الحفصي يسمع صوتَه ويمده ووطنَه بالعون والمدد.

أما فيما يتعلق "بالمقدمة البحرية "، فقد كان شاعر ابن الأبار يصف واقعا عايشه يوم أُوفِدَ إلى السلطان الحفصي لطلب العون والمساعدة ،من أجل تخليص وطنه من ربقة العدو الجاثم على صدر أمته . ولم يكن في هذا الموقف مقلداكما فعل بعض الشعراء، وإنما كان ينقل عبر أبيات صورة حقيقية، وما كان بحاجة إزاء الوضع المزري ، الذي يعشه أهله البلنسيون بخاصة ،والأندلسيون بعامة من جرّاء تسلط الأراغونيين ،الذين استقوَوا على الأهالي العُزّل ،سلبوهم كرامتهم وتعدوا على أعراضهم، واستباحوا كلَّ حلال عندهم.

فكانت الوفادة إلى السلطان الحفصي، الذي دانت له رقاب كثير البلدان عبر السفينة المباركة بدل الناقة ،التي لم تكن موجودة . ولقد كان لابن رشيق القيرواني رأيٌ صريح لماّ تحدث عن ارتباط الشاعر . أي شاعر . ضمن القصيدة بوجود الناقة والفلاة في حياته اليومية، فالأمر عنده عادٍ إذا ما كانت (الناقة والصحراء) موجودتين واقعًا، أما إذا لم يكن ذلك قائما، فذِكْرُه في القصيد غير جائز ((**فالواجب اجتنابه**))[65] ، كما هو الحال في زمن ابن رشيق، الذي ذكَر بأنه لا يوجد في زمنه، وقد ذُكِر هذا الرأي لمّا مثّل بأبي الطيب المتنبي وتفضيله للخيل بدل الإبل . [66]

وإذا ما تناولنا " المقدمة الخمرية "، فإننا نجد للشاعر قصيدةً، يبلغ عدد أبياتها خمسةً وأربعين بيتا، وردت في غرض المديح لأبي زكريا الحفصي، كان نصيبُ المقدمة فيها ثلثَها تماما، وكانت ممزوجة بالحديث عن فتاته؛ فاتِنَتِهِ، التي منعوها منه، وأبعدوها عنه حتى لا يراها، ناسين أن الشمس لا تخفيها الحُجُبُ. ويحسن الربط ههنا بين هذه المقدمة وبين الموضوع الرئيس(مدح السلطان) ،حينما يجعل بُخْلَ أهل حبيبته تعويضا له عن كرم ممدوحه الذي لا يبخل بمدّ يده إليه ليسعفه ويخفف عنهن مسترسلا . كما عوّدنا . في ذكر فضائل السلطان والإشادة بعظيم أخلاقه و جميل صنيعه مع الناس جميعا، متسلحا بقوة التدين وسطوة منه في الحق على السلاطين . ونجد الشاعر هنا قد أحسن الربط بين موضوعيْه بقدرٍ لا تكاد تميز بينهما .

وفيما يتعلق " بالمقدمة الحماسية " فإننا يمكن أن نقول إن هذا النوع لم يكن من المقدمات الغالبة في الشعر العربي بعامة إذا ما قورنت بباقي المقدمات؛ من مثل الطللية والغزلية ومقدمة الظعن . وهو الأمر ذاته، الذي وجدناه في القصيدة الأبَّاريَّة ،التي لم تُلْقِ بالاً بهذا النوع ذلك أن مقدمة وحيدة يمكن أن نصنفها ضمن المقدمات الحماسية،التي استهلها بالحديث عن الفرند (السيف) المشبَّه في تجريده بالنِّهْي (الغدير) وبالمثقّف (الرمح) الذي تقْسَمُ به هام الأعداء المتمردين، ممثلا في ذلك بابن غانية ومصيره، وكذا مصير بني غانية، الذي كانوا يشكلون خطرا على السلطان كبيرا.

وتكمن هذه الرابطة الحماسية بالموضوع (المدح) في أنّ الشاعراستطاع أن يجعل الكلام عن أدوات الحرب والبطش ،التي لا يمتلكها إلا أمثال السلطان الحفصي أبو زكريا ،هي التي جعلته يقول: [الكامل] :[67]

لَـــمْ أَرْضَ إلاَّ النُّجُـــومَ نَـــوازِلا لَمَّـــا حَـــدَا بِـــي لِلسَّـــعادَةِ مَـــا حَـــدَا

إنِّـي رَحَلْتُ إليْـهِ فـي طلـبَ العُلـىَ أَكُـــونَ عبْـــدًا فـــي ذَرَاهُ سَـــيِّدَا

وإن الحديث . في الحقيقة . عن ربط المقدمات بموضوعاتها من أهم ما تطرق إليه النقاد الذين نجد الأخير منهم نقل أو استفاد من الأول ، استفادة،جعلوا الشواهد بينهم مكرورة باستثناء تفصيل بعضهم ، أو تلخيص آخر .

وهذا ما يعني أن سلطة نهج القصيدة الجاهلية قد رمى بثقله على كل الرؤى . تقريبا . لأن هم كل واحد منهم هو الحفاظ على حسن الاستهلال ، الذي يؤدي بدروه إلى الربط اللصيق بالموضوع الرئيس، الذي يكون إما مدحا أوهجاءً أو فخرا أو غيرها من الموضوعات ، التي من أجلها نُظِمتِ القصيدةُ .ولسنا بحاجة . هنا . أن نستعرض هذه الآراء ؛ لأننا كنا قد أشرنا إليها في مواضعها .[68]

كل النقاد يكاد يجمِعون على أن: أحسن الشعر ما كان منتظمَ الأجزاء؛ أي يُجمع أوله بآخره كما يجب أن تكون القصيدة كلاًّ متكاملاً؛ ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها؛ نسجًا وفصاحة، وحسنَ ديباجةٍ، وجزالةَ ألفاظٍ.

نتائج البحث:

ومن النتائج ،التي خلصنا إليها في هذا البحث أن:

- ابن الأبار انتهج في مقدماته منهجيْن : منهج القدامى ؛ كما رسمه ابن قتيبة للشعراء ، مع التخفف في تناول بعض أقسام هذه القصيدة ، ومنهج تملَّص فيه من بعض التقاليد ؛ كالتخفيف من النسيب في مواقف تستدعي ذلك؛كالاستنفار .
- مقدماتِه وردت متنوعة طولا ، وقصراً ، والطويلة أغلب .
- المقدمات الغزلية كانت أكثر وأوفر ،استهَل فيها . غالبا . قصائد المدح ، إلا أن هذه المقدمات الغزلية ، كثيرا ما كانت ممزوجة بأدوات الحرب .
- من مذاهب الشاعر الفنية الثورة على المقدمة الطللية .
- عدد أبيات مقدمات الشاعر ، قد تراوحت بين ثمانية أبيات واثنيْن وأربعين بيتا موزعة على أغراض ؛ أهمها : المدح ، الاستعطاف ،الاستنفار ،الوصف والرثاء.
- تناول الشاعر لمقدمات قصائده كان بالترتيب : المقدمة الغزلية، تليها مقدمة الشكوى من الزمان والأيام ، فالمقدمة الطللية، فالبحرية ،ثم الخمرية ،وأخيرا الحماسية.

الإحالات والهوامش :

1. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ،ط2، 1981 ، ص303 .
2. ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، قدّم له: حسن تميم، وراجعه وأعدّ فهارسه:محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم بيروت، لبنان ، ط1986،2 ، ص31 32 .
3. ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص31 . 32 .
4. ينظر: عدنان محمد غزال، ابن الأبار البلنسي . حياته وأدبه . جامعة دمشق، سوريا، أطروحة دكتوراه (مخطوط) ، 1997 . 1998 ، ص 463 .
5. ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر ود.م.ج الجزائر، ط2 1956، ق 107 ،ص233 .
6. . ابن الأبار ، ق 203 ، ص429 .
7. أشرف محمود نجا ، قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، مصر ، ط1 ، 2003 ص 134 .
8. الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبع مكتبة الخانجي بمصر ، ط2 ،1960، 4،/24.
9. ينظر: عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر، الجاهلي، دار المعارف بمصر، د.ط ، 1970، من ص 71 إلى ص 107.
10. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 31 . 32.
11. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الجزء الأول، تحقيق:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا . بيروت . ط1 ، 2001 ، 231/1.
12. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص 305.
13. ابن الأثير، أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بم محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحيقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الباب الحلبي القاهرة . د.ط ، 1939 ، 96/3 . 97.
14. المتنبي ، ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت دط ، 1983 ، ص 302 .
15. أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، حقّقه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي دار الجيل ، بيروت ، دط ، 2003 ، ص 267 .
16. أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، ص 790 .
17. **الفدْم** : الأحمق ، العيّ عن الكلام في رخاوة وقلة فهم . وقُرئت اللفظة بالقاف أي : (القدم) .
18. براونة ،فالتر ،(Walter Braouna)الوجودية في الجاهلية (مقال)، مجلة المعرفة السورية السنة الثانية العدد الرابع حزيران، 1963 ،ص161،156 .
نقلا عن:عطوان،حسين،مقدمةالقصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص217.
19 . الربعي ، ابن سلامة ، تطور البناء الفني في القصيدة العربية ،دارالهدى عين مليلة، الجزائر ،د.ط ، 2006 ، ص14.
20 . ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، تقديم: حسن تميم مراجعة وإعداد: عبد المنعم العريان، ط3، 1986،ص 31 .
21 . ابن الأبار ، الديوان ، ق201 ، ص417 .

22 . نفسه ، ق201 ، ص418 .

23. **حُزوى** : موضع في ديار بني تميم .

24 . **الخَلصاء** :موضع بالدهناء. * **قواء** : قفراء .

25 . **دَهْدَهَ** : دحْرجَ . * **المروا** :حجارة بيض برّاقة.

26 . **شكوا** : ما يُشتكى منه . * **أخوى** : جاعَ .

27 . ابن الأبار ، الديوان ، ق201 ، ص419 .

28 . ينظر :ابن الأبار ، الديوان ، ق 97 ، ص 218 .

29 . نفسه ، ق67 ، ص215 . * هذه القصيدة مبتورة ، غير كاملة . فبقية الصفحة والصفحة التي تليها بياضٌ .(ينظر : الديوان ، الحاشية 24 ، ص 218.) .

30. **الدعس** : الطعن بالرمح . * **الهبر** : الضرب القاطع .

31 . **سُحْم** : سوداء .

32 . ابن الأبار ، الديوان ، ق20 ، ص67 .

33 . نفسه ، ق159 ، ص329 .

34 . **القصّ** : الصدر .

35 . **المحص** : الخالص من العيب .

36 . **الوخد** : نوع من السير . * **النصّ**: أن تستخرج أقصى السير من الناقة .

37 . **النعامى**: ريح الجنوب أو بينه وبين الصبا .

38. **حِسْمَى** : أرض بالبادية، أو قبيلة جذام

39. **يفصي** : ينقطع .

40. ابن الأبار ، الديوان ، ق63 ، ص143 .

41 . ينظر : محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص237 .

42 . ابن الأبار ، الديوان ، ق67 ، ص159 .

43 . **سدكت** : لزمت .

44 . **الثمدا** : الماء القليل ، لا مادّ له .

45 . هناك قصيدة أخرى ، فيها حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية .(ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق93 ، ص205) .

46. ابن الأبار ، الديوان ، ق 111 ، ص 243 .

47. **طلَّت نجيعي** : أهدرت دمي .

48 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 203 ، ص 429 .

49 . ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 93 ، ص 205 .

50. ينظر : هدى شوت بهنام ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي ، دراسة موضوعية فنية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، ط 1. 2000 . ص 119 ، وما بعدها .

51- ينظر: حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، 1981 ، ص 39، 42 .

52. ابن الأبار ، الديوان ، ق 85 ، ص 185 .
53. نفسه ، ق 85 ، ص 186 .
54. نفسه، ق 85، ص 185 .
55 . ينظر: ابن الأبار ، الديوان ، ق 85، ص 185 . 186 .
56 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 23، ص 73 .
57 . **الضرب** : العسل الأبيض الغليظ .
58. ينظر: ابن الرومي، ديوان ابن الرومي ،شرح :أحمد حسن بسج،منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط3 ، 2002 ،ص 126.

دَعِ الأجمالَ مُرْتَحِلَهْ تخب بركبها عَجِلَهْ [مجزوء الوافر]

59 .أبو نواس، ديوان أبي نواس، حقّقه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ، دط 2003 ، ص 267 .

كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها وبينَ بـاكٍ على نُؤَى ومُنتضِد [البسيط]

دَعْ ذَا وعدمتُكَ واشْرَبْها مُعتقةً صفراءَ تغرقُ بين الرّوح والجسَد

60 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 37 .
61. نفسه، ق 107 ، ص 233 .
62. نفسه ، ق 185 ، ص 399 .
63. ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص31 .
64 . ابن الأبار ، الديوان ، ق 170 ، ص 364 .
65. نفسه ، ق 171 ، ص 365 .
66. نفسه ، ق 158 ، ص327 .
67. ابن رشيق ، العمدة ، 230/1 .
68. ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 229/1 .
69. ابن الأبار ،الديوان ، ق 70 ، ص 168 .
70 . ينظر: ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر تحقيق:عبد..... **لبنان ، ط3 ، 2002 ، ص 126 .**
دَعِ الأجمالَ مُرْتَحِلَهْ تخب بركبها عَجِلَهْ [مجزوء الوافر].